الصابئة او المندائية

بقلم الاب الفاضل والباحث المدقق انستاس الكرملي البغدادي

(تابع لما سبق)

معنى لفظة « الصابئة » وما جاء من بعض مترادفاتها

ان سألنا العربَ ما معنى الصابئة . قالوا كلهم كلاماً مختلفاً في المبنى . موتلفاً في المعنى واكثروا من التفاسير والتآويل . وفي كلّ ما نصُّوا عليهِ ليس ما يروي الغليل . او يشفي العليل . قال ابن القيّم العلّامة في كتابهِ اغاثة اللهفان في مصايد الشيطان ما حرفهُ : « واصل دين هؤلاء (اي الصابئة) فيما زعموا انهم يأخذون محاسن ديانات العالم (ويقابلهُ بالفرنسيَّة بهذا المعنى éclectiques) ويُخرجون من قبيح ما هم عليهِ قولاً وعملاً . ولهذا سُمُّوا « صابئة » اي خارجين . فقد خرجوا عن تقييدهم بجملة كل دين وتفصيلهِ الّا ما رأوهُ فيهِ من الحقّ . وكانت كفّار قريش تسمّي النبي (صلعم) : (صابئاً) والصحابة : « الصبأة » . يُقال : صبأ الرجلُ بالهمز اذا خرج من شيء الى شيء . وصبا يَصبو (كدعا يدعو) اذا مال . ومنهُ قولهُ : « و إلّا تصرف عني كيدَهنّ أصبُ اليهنّ » اي أمِلْ . والمهموز والمعتلّ يشتركان . فالمهموز : ميل عن الشيء . والمعتلّ : مَيلٌ اليهِ . واسم الفاعل من المهموز : « صابئ » بوزن قارئ . ومن المعتلّ : « صابٍ » بوزن قاضٍ . وجمع الاول : « صابئون » كقارئون . والثاني : « صابون » كقاضون . وقد قُرئ بهما » اه . وقال سيف الدين ابو الحسن الآمدي في كتاب ابكار الافكار ما حرفهُ : « والاشبه في تسمية هذه الطائفة « صابئة » لميلهم وانحرافهم عن سَنَن الحقّ في نبوّة الانبياء واتخاذهم آلهةً غير الله تعالى . اخذاً من قول العرب : صبا الرجل : اذا مال وانحرف » اه . وقال في ثناء الغليل : « صابئ » بن لامك . عام اعجمي وهو اخو نوح . اليهِ تُنسب الصابئة . قالهُ السهيلي » . وقال في المصباح : « وصبأ من دين الى دين يَصبأ مهموز بفتحتين خرج فهو صابئ . ثمّ جُعل هذا اللقب علماً على طائفةٍ من الكفّار يقال انها تعبد الكواكب في الباطن وتُنسب الى النصرانيَّة في الظاهر . وهم الصابئة والصابئون .

ويدَّعون انهم على دين صابئ بن شيث بن آدم (١ ويجوز التخفيف فيقال: « الصابون » وقرأ بهِ نافع اه

هذا هو رأي العرب في اشتقاق لفظة الصابئة. امَّا الافرنج فقد ذهبوا الى غير هذا المذهب. قال نُزبر في مقدَّمة كتاب « المصحف الناصري » (٢ ما معرَّبهُ وقد نقل الكلام عن صاحب « كتاب لغة الصابئة وديانتهم »: ومن المرجَّح ان كلمة " الصابئة " مشتقَّة على ما قالهُ العرب من صَبَغَ (ﺻﺒﻎ) اي عمَّد وادخل في الماء ». قلتُ: وهذا الاشتقاق ليس ببعيد فان ما كان بالغين المعجمة في العربيَّة فهو في سائر اللغات السامية بالعين المهملة ولمَّا كانت العين المهملة كثيرًا ما تُبدل من الهمزة وبالعكس كما بيَّناهُ غير مرَّة في المشرق كانت لفظة الصابئة بمعنى الصابغة من المحتمل. لكن يُردّ على هذا العلَّامة وعلى من حذا حذوهُ واتبع رأيهُ ان لفظة الصابئة قديمة وسُنَّة الصبغ مقتبسة من النصرانيَّة وهي لم تكن عندهم في الاطوار الثلاثة الاولى وعليهِ فهذا الاشتقاق غير صحيح وبالتالي غير مقبول. والرأي الآخر هو الذي ذكرهُ المقتطف (٢٣: ٨٧) بما حرفهُ: « وذهب نولدكي الى انهـا مشتقة من « صبَّ » الماء اشارة الى اعتمادهم بالماء لانهم يتعمدون كالنصارى ». قلنا: ويُردّ على نولدكي (ان كان هذا هو رأيهُ بالحقيقة) نفس ما رددناهُ على نُزبر. وقد ذكر المقتطف في نفس تلك الصفحة رأيًا آخر قبل رأي نلدكي. قال: « وذهب جَسنيُوس العالم اللغوي الألماني ان كلمة صابئين مشتقة من صبأوث العبرانيَّة اي جند السماء دلالةً على انهم يعبدون الكواكب » اه. وهو رأي مُحتمل لانهُ يُخرَّج على الرأي الآتي وهو:

ان الصابئة عندي مشتقَّة من « صَبَأَ » لفظة قديمة من عهد أن كانت اللغات الساميَّة لغةً واحدةً او لغةً مختلطةً ومشتركةً بين عامَّة الساميِّين ومُصحَّفة عن « ضَوَأَ » التي قلبها العرب في اصلاحهم للغتهم الى كلمة « ضاء » ولا جرم انَّهُ وُجد زمان قبل الزمان الذي دُوِّنت فيهِ اللغة وقواعدها بقرون كثيرة امور لغويَّة « عربيَّة » تقرِّبها من

---

١) وليس في ايدينا من الكتب تؤيد ان المسمى « صابئ » هو ابن لامك كما قالهُ في شفاء الغليل او ابن شيث كما يقولهُ الفيومي

٢) Matth. Norberg : *Codex Nasaræus, liber Adami appellatus.* T. I, p. XIV, *nota* 13

سائر اخواتها الساميَّة وهي اليوم قد فُقدت او قد أُميتت او قد انقرضت او قد عفت آثارها ولم يبقَ منها الّا غيضٌ من فيض او قيضٌ من بيض. ولفظة الصابئة (١ هي من هذا القبيل فمعنى عبادة الصابئة اذن: عبادة الضاية اي الاجرام المضيئة وهي عبادة الكواكب والاجرام السماوية. ومثل ضاء: صَبأ. ومثل أضاء: أصبأ. وسائر المعاني العربيَّة المتفرّعة مأخوذة من نشوء الضياء. فتأمل

١) ومن هذه الكلمة نستنتج ثلاثة امور لغوية مهمة:

١ً كان العرب في قديم الزمن يتلفظون « ببعض » كلم الاجوف على اصولها كما هو الامر في بعض الفاظ ينطق بها على هذا الوجه في اللغات السامية من ارميَّة وعبريَّة وحبشيَّة. وشاهد اللغات الاخوات ليس بسهل النقض. لكن لمّا رأى العرب ان اللفظ يثقل على اللسان عند الجري على الاصل فضّلوا على ذلك قلب الواو او الياء الفاً اذا كانتا متوحتين طلباً للخفَّة في الكلام وحسن وقعه في الآذان. ولم يُحفظ الاصل الّا في ما كان عينهُ مكسورةً كخَوِرَ وعَوِزَ وهَيِفَ وعَيِدَ. او غير ذلك ممّا هو مقرَّر في كتاب النجاة (راجع شرح ابن عقيل على ألفيَّة ابن مالك ص ٢٢٦ و ٢٢٧)

٢ً كان للعربيّ الاقدمين حرفٌ قد فُقد اليوم بالمرَّة من اللغة الفصيحة ولم يفقد من سائر اللغات الساميَّة وبعض اللغات العاميَّة العربية. وهذا الحرف هو الثاء المثلَّثة الفوقيَّة كحرف الـ V الفرنسية. ولمّا كان هذا الحرف يُلفظ بين الياء والواو على رأيٍ وبين الفاء والواو على رأيٍ آخر وبين الفاء والباء على رأيٍ ثالث ضعيف كان الابدال بين هذه الأحرف ممّا لا بعيد عنهُ. والتمثيل في هذا الباب يدعم الرأي ويزيل الارتياب. ويُلقم المعترضين الحجر ويُنشّف في افواههم الرضاب. فامثلة الابدال بين الياء والواو: طَهْبل وطَهْوَل. نبَّه ياسمٍ ونوَّه. الباشقُ والواشقُ. والبالُ والوالُ (ضرب من السمك). وامثلة الابدال بين الفاء والباء: السيفَّة والسيبَّة. الجفْف والجبْب. اليشف واليشب. البصف والبصب. والضَّنْفس والضَّنبس. وامثلة الابدال بين الفاء والواو: أفشى الرجلُ وأوشى. وشوصَل وشفْصل. وكذلك الواو والفاء المطبَّقان

أجَل اننا لا نجهل ان الشيخ ابرهيم اليازجي قد انكر في الضياء (٢: ٦١٠) وجود حرف الثاء المثلَّثة الفوقيَّة عند قدماء العرب اذ قال: « والثاني (اي والموضع الثاني) وهو ما لم يُضطرُّوا اليه في وقتهم الحرف الذي بين الفاء والواو او بين الباء والواو فاضم يبدلون منهُ احد هذه الاحرف الثلاثة...» الخ. غير ان هذا الكلام تردهُ: ١ً الادلَّة السابقة. ٢ً شهادة احد أعلام النحاة وقد ذكرها الرضيّ في شرح الشافية إذ قال (في آخر ص ٣٥٠): « قولهُ: والفاء كالباء. قال السيرافي: هي كثيرة في لغة العجم وهي على ضربين: احدهما لفظ الباء اغلب عليهِ من الفاء (اي ب p) والآخر: لفظ الفاء اغلب عليهِ من الباء (اي ف V) وقد جُعلا حرفين من حروفهم سوى الباء والفاء الخالصين. قال: وأظن ان العرب انما اخذوا ذلك من العجم لمخالطتهم اياهم » اه. قلتُ: وقد رأيتَ ان الثاء موجودة في بعض اللغات السامية كالارميَّة والصابئيَّة والحبشيَّة وعليهِ فوجود

والصابئة اذا تكلّموا بالعربية يُسمّون نفوسهم « صابئة » ويُحرّفون اللفظة ويُصحّفونها فيقولون: « صُبّة » والواحد منهم: « صُبّي » او يُسمّون نفوسهم « يحياوية » والواحد منهم « يحياوي » نسبةً الى يحيى اي يوحنا الصبور لاعتقادهم انهم متمسكون بطريقة يحيى وهي بريئة منهم. اما اذا تكلّموا بلسانهم الصابئ فيسمّون نفوسهم: « مَنْدايا » والواحد منهم « مَندائي » ومن ذلك تعريب اسمهم بهمزة بدلًا من الياء الاولى جريًا على الطريقة العربية

واذ قد فهمنا معنى اللفظتين الاوليين بقي علينا ان نفهم معنى « مَندايا » فاذا سألنا حضرة الشيخ ابرهيم اليازجي فانهُ لا يتوقّف من ان يقول ان معناها كما ذكرها حضرة الفاضل نيقولا السيوفي: « اي الاقدمون » (؟. كذا. راجع البيان ص٦٩). اما المقتطف فقد نقل في (الجزء ٢٣ : ٨٩) عن القس صموئيل زويمر (S. M. Zwemer) البروتستاني رأيًا آخر قال: « ومن روح المجد (١ انبثق الاردن العظيم (٢ ثم نُحتت الحياة القديمة (٣ وهي معبودهم الحقيقي (٤ واليهِ يُصلّون واليهِ يُنسبون. وقد صدر منهُ « مندا حياه » اي رسول الحياة (٥ وهو وسيطهم. وكل الذين يقبلون وساطتهُ هم المندأون » اه (كذا)

الثاء المثلثة في العربيّة قديم جدًّا. واختلاط العرب بالاعاجم قديم بخلاف ما يتوهمهُ اللغويون. فان المؤرخين في هذه المادّة اصدق وعليهم المعوّل

٣ لم يكن للعرب في الزمان القديم حرف الضاد اذ لا اثر لهُ في سائر اللغات السامية. وانما ادخلهُ العرب لنفسهم على تراخي العصور حتى غدا من مميّزات لغتهم. وما يلفظ ويكتب اليوم بالضاد المعجمة كان يُلفظ ويكتب بالصاد المهملة. ولنا على ذلك ما عدا لفظة الصابئة القديمة ودليل اللغات الاخوات وجود الفاظ عربية تُقال بلثتين بالضاد المعجمة وبالصاد المهملة. وعليهِ فهي بالصاد على اللغة العربية القديمة وبالضاد على اللغة المُصلَحة. من ذلك: الحصب والحضب. والقصاص والقضاض. وناص نوصًا وناض نوضًا. وصبصبة وضبضبة. وانقاص وانقاض. وصلاصل الماء وضلاضلهُ. وانقاص وانقاض. وصمصم وضمضم. الى آخر ما هناك من الامثال الكثيرة التي ذكرها صاحب المزهر (١ : ٢٦٢ و ٢٦٣) ٠ ١) كذا. والاصح من « قَرْمانا » وهو المبود الاعظم

٢) اعلم ان معنى لفظة الاردن عند الصابئة ليس طسمًا لهذا النهر المعهود المشهور بهذا الاسم بل هو اسم معناهُ « النهر » مطلقًا. وفي قولهم « النهر العظيم » الماء العذب كلهُ. وقولهُ: « انبثق » هو وَهم ظاهر لان المندائيين لا يُسلّمون بالانبثاق ولا يعرفونهُ. وانما يقولون « بانكشاف صور الالهية » لا غير ٣) قلتُ وفي لسانهم: « هيّي قَدمايي » ومعناها « الحياة الاولى » لا الحياة القديمة

٤) كذا. وهذا وَهم آخر ٥) كذا. والاصح مَندا دْهيّي. ثم ان ابا مندا دْهيّي ليس هو « هيّي قدمايي » بل روحاني آخر واسمهُ عندهم نُباط ومعناهُ: منبع الحياة

واذا سألنا غير من تقدَّم ذكرهم من المؤلفين عن معنى كلمة « مَندايا » يجيبنا كل منهم جواباً غير جواب الآخر . امَّا الحقيقة فهي ان لفظة « مندايا » مشتقَّة من فعل بلغتهم وهو מנדא ويُقابلهُ بالآراميَّة מנדע ومعناهُ عَلِمَ ودرى وعرف وفَهِم . واسم الفاعل منها מנדא ثمَّ أُقحمت النون بين الميم والدال (وهم كثيراً ما يفعلون مثل هذا) فصارت מנדא . ولمَّا كان حرف العين غير موجود بالصابئيَّة فهم امَّا يبدلونها بحرف من احرف المدّ او يحذفونها اعتباطاً بدون إبدال وعليه قالوا מנדא (مندا) وحاصل معناها : عارف او دارٍ . وبلفظة أُخرى « أدريّ » (gnostique) . وهذا يدلُّك على ان المندائيَّة ليسوا الَّا ادريّين او فرقة من الادريين . وينقل الصابئة معنى لفظة « مَندا » من معنى الموصوفية الى معنى الوصفيَّة مطلقاً فيكون معناها ايضاً « الدراية والعلم والمعرفة » وبالفرنسيَّة « gnose » ومن ذلك روحانيهم المعروف باسم : « مَندا دْهيّي » اي معرفة او دراية الحياة (la gnose de la vie)

ولك وجهٌ ثانٍ تقول بعدهُ : « صرَّحتْ بجلدانْ » وهو ان لفظة « المَندايا » المنسوبة الى « مَندا » مشتقة من فعل מנדא ومعناهُ . فقير وصعلوك وخشن المعيشة . فتكون هذه اللفظة تنقل معنى « أبيوني » ébionite المشتقة من اصل عبري אביון بمعنى مَندايا . وحينئذٍ يرجع بك المعنى الى ان المندائيَّة هم أدريَّة لانَّ الابيونيين هم فرقة من اولئك اصلحها أبيون . ثم جاء بعدهُ آخرون فقسمت فرقهم المختلفة باسماء مبدعيها ومن عداد هذه الفرق الفرقة المنسوبة الى « أدَا »

ولك وجهٌ ثالث للتأويل وهو ان « أدا » Ada كان من الذين أدخلوا آراء جديدة في الصابئيَّة وكان يعيش فقيراً صعلوكاً كأبيون فصحَّف اصحابهُ لفظة « أدَا » وجعلوها يدا (מנדא) فاشتقوا منها اسم فاعل وقالوا « مَندايا » . ولمَّا كان هذا من الادريّين كان تابعوهُ شيعةً من هذه الفرقة . والخلاصة انك كيفما تصرَّفت بتأويل هذه اللفظة توصلك الى نتيجة واحدة اي انَّهم من الادريين وانهم قد انحرطوا في سلكهم بدون ان يتركوا عبادة الكواكب التي هي جوهر الصابئيَّة وقوام معتقدها في سابق الزمان وحاضره

(ستأتي البقيَّة)